سلسلة بعنوان: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾

(١)

وسائلُ المعرفةِ في الإسلام

الفطرة – الحس – العقل – الوحي

تتكاملُ ولا تتعارضُ

كتبه

حسين بن عبد الرّازق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ؛ وبعد:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ – ١٩١].

إن كل عاقل مفكر يعلم أن الله تعالى عليم حكيم لا يفعل فعلًا ولا يشاء شيئًا إلا بعلم وحكمة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١]، وهو سبحانه ﴿أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، وله الحكمة البالغة؛ لهذا فهو سبحانه لم يخلق الخلق عبثًا ولا لعبًا ولم يتركهم سدّى، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥ – ١١٦]، وأسوأ الظن ظن الكفار المنكرين لحكمة الله من خلقه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، لهذا الظن قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧]، ولن يحيى الإنسان حياة طيبة إلا إذا علم الحكمة من خلقه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٦١]، فقد خلق الله سبحانه الإنسان ليكون خليفة في الأرض، وشرّفه سبحانه بأن حمله الأمانةُ قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، والأمانةُ هي التكليف بالعبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

﴿وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومن أجل هذا فالإنسان مخلوق مكرّم مفضّل عند الله قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقال: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤]، ومن إكرامه له تسخيرُه له ما في السماوات وما في الأرض وإسباغُه عليه النعمَ الظاهرةَ والباطنةَ قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩]، وذكر سبحانه كثيرًا من تلك النعم في سورة النحل التي تسمى سورة النعم.

وقد عهد سبحانه إلى بني آدم عهدًا ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [يس: ٦٠ – ٦١].

وخلق الخلق ليبتليهم في هذا ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ [الملك: ٢]، فمن حفظ العهدَ وحسُن عمله كان عند الله خير الخلق، وشكر الله سعيَه، وأحياه حياة طيبة وأعد له في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ [الإسراء: ١٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ﴾ [النحل: ٩٧]، وأما من نقض العهدَ ونسي ربه ويومَ الحسابِ لم يبق له وزن عند الله بل كانت البهائم أهدى سبيلًا منه، وهو عند الله شرُّ الخلق، وجعل الله عيشه ضنكًا وحشره يوم القيامة أعمى، وأعد له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]، وقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ [الكهف: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥]، وقال: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

ولأجل أن يكون الإنسانُ مؤهلًا لحمل تلك الأمانة (الخلافة في الأرض وعبادة الله تعالى وحده) فقد جعل الله له وسائل للعلم، ومصادر للمعرفة، بها يعرف ربه، وبها يميز بين الخير والشر، والحسن والقبيح، من هذه المصادر المعرفية:

الفطرة:

فإن الله تعالى فطر عباده على العلم به والاستسلام له والافتقار إليه دون سبب خارجي يرشدهم إلى ذلك؛ كالطفل أولَّ ولادته يوضع الثديُّ في فمه يلتقمه ويرضعُ دون مرشد، قال الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وهذه الفطرة ميزان يزن به الإنسان أفعالَه وغيرها، ويشعر بحُكمها، فإن فَعَلَ ما يوافق فطرتَه مثل (الصدق، مساعدة المحتاج، إكرام الضيف ونحو ذلك) شعر براحة وفرح، وإن فعل ما لا يوافق فطرته مثل: (الظلم، والكذب ، والسرقة ونحو ذلك) شعر بألم وحزن، وهو معني قول النبي ﷺ: «**وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ**»[(١)]، ومن هنا سُمِّي الخيرُ معروفًا، والشر منكرًا قال تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا**﴾ [الشمس: ٧-٨]، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال لأشج عبد القيس: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة**»[(٢)]، قال: تخلقت بهما أم جبلني الله عليهما؟ قال: «بل جبلك الله عليهما»، قال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحبه الله ورسوله.

وهذا يدل على أن الأخلاق منها ما هو فطري وما هو مكتسب.

وبالفطرة يُدَلُّ الإنسانُ على مكارم الأخلاق ولهذا قال النبي ﷺ: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ**»[(٣)]، فأصول الأخلاق معلومة بالفطرة، وكذلك فقد جاء النبي ﷺ ليدعوا العبادَ أن يبتغوا بحُسن أخلاقهم وجَه الله؛ لأن حُسنَ الخُلق وإن كان خيرًا فإن العبد يُثاب عليه كذلك إن ابتغى به مرضات الله قال تعالى: ﴿**لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن**

(١) «صحيح مسلم».

(٢) «صحيح مسلم».

(٣) «مسند أحمد»، «الموطأ»، «الأدب المفرد».

نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤]، وعَـنْ عائِـشَةَ قَالَـتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الـرَّحِمَ وَيُطْعِـمُ الْمِسْكِينَ فَهَـلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لاَ يَنْفَعُهُ إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»(١).

بل إن الفطرةَ حتى في الحيوانات فالقطة مثلًا إن وضعْتَ لها طعامًا أكلتْه بجوارك، وإن سرقْتَه هربتْ به بعيدًا.

لكنَّ تلك الفطرة وإن كانت ميزانًا للمعرفة فهي قابلة للتَّغَير والتَّأَثُّر قال النبي ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»(٢).

وفي الحديث القدسي قال الله تعالى: «**وإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، فَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ بِهِ سُلْطَانًا**»(٣)، وقال سبحانه: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ ﴾ [فاطر: ٨]، وقد حصل ذلك التغير والانحراف عن الفطرة لا لأفراد فحسب بل لأقوام كما كان من قوم لوطٍ عليه السلام حين قالوا: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦]، ولما قال مشركو قريش: ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴾ [ص: ٥]، وهذا كثير.

إذًا فالفطرةُ قابلة للتغيّر، وكذلك فالمعرفةُ بها ليست تامةً شاملةً، فلا يزالُ الإنسان بحاجة إلى مزيد معرفة، وإصلاح لما فسد من الفطرة.

ومن وسائل المعرفة: الحواس كالسمع والبصر ونحوهما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

---

(١) «صحيح مسلم».

(٢) البخاري ومسلم.

(٣) «صحيح مسلم».

وذكر أقوامًا لم ينتفعوا بهذه النعم مُحذرًا من فعلهم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

❁ والإدراك الحسي[(١)]:

هو قوةٌ فطريةٌ تقتضي الانطباع بالمعطيات الحسية التي هي غاية ما ندركه من الأشياء في حالات الإدراك الطبيعي.

والأصل الذي يتحقق معه الإدراك الضروري للمعطيات الحسية هو أن الإحساس ينطبع مباشرة وبلا واسطة بالمعطيات الحسية للواقع الخارجي، بحيث يلزم تحقق الإحساس بالواقع الخارجي بمجرد وجوده وانتفاء موانع الإحساس به، فالإدراك الحسي لا يتوقف على شروط خارجة عن قوة الإحساس المقتضية للإدراك الحسي لذاتها، وإنما يتوقف على مجرد انتفاء موانع الإحساس والتي تتعلق بالواقع الخارجي لا بالإحساس في ذاته، فهذا هو معنى كون الإحساس قوة فطرية.

وإذا حرمُ الإنسان إحدى حواسِّه فإنه لا يمكن أن يُدرك ما تدلُّ عليه تلك الحاسةُ مهما علَّمناه، فالأكْمَه الذي ولد أعمى – مثلًا – لا يمكنه أن يدرك المقصود بالألوان؛ لأن إدراك ذلك متوقف على حاسة الإبصار التي هي قوة فطرية.

وهكذا الأمر في بقية الحواس، وهذا معنى قولهم: «من فقد حسًا فقد علمًا» إذ ليس للعلم بمعطيات ذلك الحس طريق أخرى غيره.

وعلى هذا فالعلاقة بين الإحساس والواقع الخارجي علاقة تلازم ضروري فإذا وجد الواقع الخارجي، وانتفت موانع الإحساس به فلابد أن ندركه، بحيث يتطابق إحساسُنا

---

(١) أفدتُ في مسألة «الإدراك الحسي» من كتاب «المعرفة في الإسلام» د/ عبد الله بن محمد القرني، مع زيادات رأيتُها مهمة.

للأشياء مع واقعها الخارجي، وإذا أدركنا الواقع الخارجي فلابد أن يكون له وجود واقعي مستقل عن إدراكنا، بحيث لا يتوقف وجوده على إدراكنا له.

وإدراك الأشياء وإن كان مشروطًا بالإحساس؛ لكنه لا يتوقف عليه وحده، بل لا يكون الإحساس بالشيء معتبرًا إلَّا إذا صاحَبَه حكمُ العقل الذي يتحقق به تصور الشيء وتمييزه.

فالحواسُ تنقلُ المعطيات الحسية للشيء على اختلافها، ولكل حاسة معطياتٌ حسيةٌ تختص بها، لا يمكن إدراكها بالحواس الأخرى [فالعين مثلًا مجالها المرئيات، والأذن مجالها المسموعات، وهكذا]، والعقل يؤلف بين تلك المعطيات الحسية، فيحصل من ذلك تصور وإدراك للشيء المحسوس.

وكما لا يمكن أن نُحس بشيء مع عدم الحواس، فإنه لا يمكن كذلك أن نتصور شيئًا بمجرد الحواس، فلو فرضنا أن إنسانًا ليست له أية حاسة فإنه لا يمكن أن يتصور أي شيء، وكذلك من حُرِم غريزة العقل كليًّا لا يمكن أن يتصور أي شيء، أو حرمها جزئيًّا [كالطفل الرضيع يرى ويسمع أشياء ولا يتصورها].

وبهذا يُعلم أن إدراكنا الحسي للأشياء ليس حسيًّا محضًا ولا عقليًّا محضًا، وأنه لا وجود لمعرفة حسية مستقلة عن التصور العقلي، والحِسّيّون[1] مع غلوِّهم في إنكار خاصية العقل في المعرفة لا ينكرون ذلك.

ولا يلزم من ذلك أن تتوقف المعرفة العقلية على ما تدركه الحواس – كما يقول الحسيون – إذ إنه لابد من التفريق بين المعرفة العقلية المتعلِّقة بالمدركات الحسية، والمعرفة العقلية المتعلقة بالاستدلال العقلي الذي يمكن أن نُثبت به وجود الحقائق الغيبية وإن لم تُدركها الحواس، إذ إن الإدراك الحسّي الذي هو في حقيقته معرفة عقلية لا يمكن أن يتحقق إلَّا مع وجود موضوعه، وهو الواقع الخارجي المحسوس، وأما المعارف العقلية المستَدَلَّة فإنما تقوم على الضرورة العقلية.

---

(١) هم الذين جعلوا الإدراك الحسي هو المصدر الوحيد للمعرفة.

والفرق بين الحالين أنه لابد في الإدراك الحسي من إدراك المحسوس، وأما المعرفة العقلية الاستدلالية فإنما تدل على وجود ما تدل عليه دون أن يكون مدركًا بالحواس مثال: إيمان العبد بقدرة الله على إحياء العظام وهي رميم – مع كونه لم ير ذلك – يصل إليه العبد عن طريق الاستدلال بقياسه على إنشائه أول مرة قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٧٨ – ٨١]، وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الواقعة: ٦٠ – ٦٢]، أما قول إبراهيم عليه السلام ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ لم يكن هذا منه؛ لأن إيمانه بإحياء الله للموتى متوقف على رؤيته لذلك قال الله: ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] والأمثلة على ذلك كثيرة.

وأساس خطأ الحسّيّين في هذه المسألة: أنّهم لم يُفرِّقوا بين هذين الأمرين، حيث ظنوا أن توقف الإدراك الحسي للأشياء في الواقع على الإحساس يستلزم أن الحواس هي المصدر الوحيد للمعرفة، فنفَوْا المعرفةَ العقليةَ الاستدلالية المتعلقة بإثبات حقائق غَيْبية غير مُدركة بالحواس.

والإدراك الحسّي للأشياء يقوم على نقل المعطيات الحسية عن الأشياء في الواقع الخارجي إلى العقل، ليؤلف بين تلك المعطيات، بحيث يحصل من مجموعِها تصورٌ للشيء المحسوس.

ونقلُ هذه المعطيات الحسية من الواقع الخارجي إلى العقل هي وظيفةُ الحواس، وتصورُ تلك المعطيات والتأليف بينها هي خاصية العقل.

وينبني على التفريق بين خاصية الحواس وخاصية العقل في الإدراك الحسي حقيقةٌ مهمة، وهي أن الخطأ لا يمكن أن يعرض للحواس ما بقيت على أصل الفطرة التي

فطرها الله عليها، وإنما يكون الخطأ في التصور الذي هو خاصية العقل، وذلك أن الحواس إذا كانت ناقلةً لم يصح أن تكون حاكمةً بحيث يمكن أن يتطرق الصوابُ والخطأُ إلى ما تنقله، وإنما يعرض لها الخطأ من جهة أنها قد تنحرف عن فطرتها، فلا يكون ما تنقله مطابقًا للواقع، وأما مع تحقق سلامتها وبقائها على أصل الفطرة فلا يمكن أن تخطيء.

وفي ذلك يقول (الفيلسوف كانت): «إن الصواب والخطأ لا يكونان في الموضوع بقدر ما لدينا من حَدْس، بل في الحكم الذي نصدره عنه، فمن الصواب إذن أن نقول: إن الحواس لا تخطيء؛ لا لأن حكمها دائمًا صحيح، بل لأنها لا تحكم على الإطلاق»[1].

ولهذا رد الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ على من قال إن الحواس آلة التمييز فقال: «ليس كذلك؛ لأن الحاسة لا يُميَّز بها بين الأشياء، بل مجرد السمع الذي يدرك الصوت لا يُميِّز بين الصوت وغيره، بل يُحس الصوتَ، ثم الحكم على الصوت بأنه غير اللون يعرف بغير الحاسة، وهو العقل، وبه يعرف غلط الحس[2]، إذ الأَحْوَل يرى الواحد اثنين،

---

(١) «نظرية المعرفة» (ص ٦٢) للدكتور فؤاد زكريا.

(٢) أي: مع عدم سلامتها كما يدل عليه بقية الكلام؛ لأن الحس لا يمكن أن يخطيء مع سلامته، ومما يؤثر على سلامتها السحر مثلًا كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، فموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لكونه ليس ساحرًا فقد خُيِّل إليه من سحرهم أنها حيَّات تسعى، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، لكن السحرة كانوا مستيقنين أنها حبال وعصي.

ومن ذلك أن الكفار لما رأوا الأيات من الأنبياء ولم يستطيعوا إنكارها زعموا أنها ليست واقعةً حقًّا، وإنما أعينُهم قد سُحرت قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤ – ١٥]، وقال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١ – ٢]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢].

والممرور يجد الحلو مرًا، لكن العقل به يميز سلامة الحس من فساده، إذ قد استقر عنده ما يدرك بالحس السليم، فإذا رأى من له عقل حِسًا يُدِرك به خلافَ ذلك علم فساده، ونَظر في سبب فساده»[1].

وإذا عُلم أن الحواس قد تخطيء في حال انحرافها عن الفطرة التي خُلقت عليها لم يلزم من ذلك أن نحكم بإمكان خطأ الحواس مطلقًا، بل لابد من التفريق بين الحالين، وأن الخطأ إنما يعرض لها في حال عدم سلامتها.

لكن الشُّكّاك[2] لم يفرقوا بين الحالين، وقد التزموا نتيجة لذلك القول بأن الحواس قد تخطيء بإطلاق، وأنه لا يمكن الجزم بمطابقة الإدراك الحسي للواقع، إذ إن الخطأ إذا أمْكَن في بعض ما تنقلُه الحواس استحال أن يكون الإدراك الحسي يقينيًا لاحتمال الخطأ فيه.

وفي ذلك يقول ديكارت: «إني جربت هذه الحواس في بعض الأحيان فوجدتُها خدّاعة، ومن الحكمة ألا نطمئن كل الاطمئنان إلى من خدعونا ولو مرة واحدة»[3].

ويحكي الغزالي ما عرض له من الشبهة في الإدراك الحسي وسبب ذلك حيث يقول: «انتهى بي طول التشكيك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات، وأخذت تتسع للشك فيها وتقول: من أين الثقة بالمحسوسات، وأقواها حاسةُ البصر، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفًا غير مُتحرك وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة بغتة، بل على التدرج ذرة ذرة، حتى لم يكن له حالة وقوف، وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيرًا في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار.

---

(١) «بغية المرتاد» (ص ٢٦٧، ٢٦٨) لابن تيمية.

(٢) هم الذين يُشككون فيما تنقله الحواس، وعندهم لا يمكن الجزم بمطابقة الإدراك الحسي للواقع.

(٣) «التأملات» (ص ٧٢، ٧٣) لديكارت، ترجمة الدكتور عثمان أمين.

هذا وأمثاله يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه، ويُكذِّبه حاكمُ العقل ويُخوِّنه تكذيبًا لا سبيل إلى مدافعته، فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضًا»[١].

وقد ذكر الشُّكاك أمثلةً كثيرة لتبرير الشك في الحواس، لكن جميع ما ذكروه لا يعدو أحد أمرين، **فإما أن يكون الخطأ ناشئًا من عدم سلامة الحواس، وإما أن يكون التغير في الواقع الموضوعي للمحسوسات لا في الإدراك الحسي.**

فأما الخطأ الناشيء عن عدم سلامة الحواس فلا يقدح في مطابقة الإدراك الحسي للواقع؛ لأن ذلك مشروط بسلامة الحواس وبقائها على أصل الفطرة، فلا تلازم بين حال الحواس في حال سلامتها وبين حالها في حال عدم سلامتها، ولذا فإن الإنسان يدرك خطأ الحواس بقياسه على ما يعرفه من حال إدراكه الصحيح في حال سلامتها، وهذا أمر ضروري يجده الإنسان من نفسه، فلا اشتباه بين الحالين مع وجود الفرق الضروري بينهما[٢].

وأما ما يعرض للواقع الموضوعي المحسوس من تغير، بحيث لا يبقي على طبيعته المدركة الأصلية فلا علاقة له بخطأ الحواس، بل تكون حينئذ ناقلة للواقع الموضوعي كما هو الخارج، سواء بقي على طبيعته الأصلية أو تغيرت طبيعته واختلفت عن أصلها.

وما ذكره الغزالي في كلامه السابق إنما هو من هذا القبيل، فعدم رؤية الحركة للظلِّ إنما يرجع إلى كونها بطيئة جدًّا، وهذا لا يدركه الإنسان لمجرد نظرةٍ عابرة فلو استقر إدراك الإنسان للظل فترة من الزمن لأدرك حركته.

---

(١) «المنقذ من الضلال» (ص ٨٤) للغزالي، تحقيق الدكتور جميل صليبا، والدكتور كامل عياد.

(٢) مثلًا: الإنسان يعرف طعمًا معينًا لأكلةٍ ما؛ لكنه في حال مرضه – أحيانًا – لا يجد نفس الطعم، فهو بذلك يعرف أن مرضَه هو السبب في فساد ذوقه بقياسه على حال صحته، وكذلك عند (الزُّكام) قد لا يجد رائحةً من شيء ما، مع كونه يجزم بأن له رائحة معينة يعرفُهَا حالَ صحته، فهذا الخطأ بسبب ما طرأ على تلك الحاسة فأفسد ذوقها.

وكذلك رؤية الكوكب البعيد صغيرًا لا يرجع إلى الخطأ في إدراك الحواس وإنما يرجع إلى بعده، ومثل ذلك رؤية العصا مكسورةً في الماء، ورؤية المنارة البعيدة مستديرةً الشكل مع أنها مربعة، ونحو ذلك إنما يعود إلى اختلاف الطبيعة المُدرَكة للمحسوسات في الخارج تبعًا لأسباب طبيعية خارجة عن إدراك الحواس.

ولهذا فإنه لو أمكن أن تصور تلك الظواهر صورًا فوتوغرافية لكانت مطابقة للإدراك الحسي لها، مع أن التصوير ناقل للواقع الموضوعي، مطابق له كما هو في الخارج، فلا يكون الخطأ في ذلك راجعًا إلى أن الحواس قد نقلت الواقع المحسوس على غير حقيقته، وإنما يرجع إلى أن الواقع قد اختلف في الخارج عن حقيقته الأصلية لأسباب خارجية كما سبق.

وبذا يظهر أن جميع ما استند إليه الشُّكّاك في قولهم بعدم مطابقة الإدراك الحسي للواقع غير صحيح، وأن الإدراك الحسي لابد أن يكون مطابقًا للواقع الخارجي بشرط سلامة الحواس[١].

---

(١) وكثيرًا ما يظن خطأ الحواس ولم يكن الخطأ لها، وإنما يكون من حكم العقل، فالحواس مجرد ناقل، والعقل هو الحكم، مثال: موسى عليه السلام رأى ثلاثة أمور من الخضر عليه السلام: [خرق السفينة لقوم أحسنوا إليهما، وقَتْلَ نفسٍ، وبناء الجدار لقوم أَبَوْا أن يضيفوهما] فحكم أنها أمور منكرة، ولم تكن كذلك، فهذا الحكم للعقل، وليس للحواس، الحواسُّ مجرد ناقلٌ، وكذلك أصحاب موسى رأوا البحر أمامهم، وفرعونَ خلفهم فقالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾، قال موسى: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾، فهذا الحكم منهم هو حكم العقل، والحواس ناقلة فقط.

وهكذا فالحكم الزائد عما تنقله الحواس هو للعقل، من ذلك مراجعة عمر رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم في الحديبية، قال: «ألم تكن تحدثنا أَنَّا نأتي البيتَ، ونطوِّف به»، وظن عمر رضي الله عنه أن ذلك يعارض رجوع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن العمرة في ذلك العام، فتأمل جواب النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «**أحدثتك أنك تأتيه هذا العام؟**»، فعمر رضي الله عنه حكم حكمًا زائدًا عما سمعه وهو قيد (هذا العام). =

❁ **والفؤاد**:

هو آلة العقل والتفكر والتدبر والتفقه، فليس العقل آلة في جسم الإنسان كالعين والأذن، بل العقل عملٌ يقوم به القلبُ، تمامًا كالسمع عمل تقوم به الأذن قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، والعقل ميزانٌ في معرفة الخير والشر، ولا يُعد الرجل عاقلًا بمجرد معرفته للخير والشر، بل باتباع تلك المعرفة والعمل بمقتضاها قال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقال عمن علم الحق ولم يعمل به: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤].

وقد جعل الله تعالى للعقل مكانة عظيمة فهو ميزان المعرفة ولا تكاد تخلو سورةٌ من القرآن من الحث عليه وما في معناه كالتفكر والتدبر والفقه والنظر والاعتبار وذكر (الحِجر)، و(الألباب)، و(الأحلام)، و(النُّهى) وتُختم كثير من الآيات بمثل قوله: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾، والحث عليه ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾، وأمر الله الإنسانَ أن ينظر ويتفكر في الآيات الكونية،

= ومن ذلك أيضًا: أنك إذا سمعت قول الله: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فإذا حكمتَ بالتعارض فهذا الحكم زائد على مجرد سماعِك للآيتين، فالغلط هنا لحكم العقل وليس في حاسة السمع.

وكذلك قد يختلف الإدراك الحسي لشيء واحد ولا يكون الاختلافَ اختلاف تضاد بل هو من باب اختلاف التنوع، مثلًا: تنظر إلى بناء عال عن قرب فتجده بطول معين، وتنظر إليه عن بعد فتجده بطول أقل، وتختلف الصورة إذا نظرت إليه من فوقه، أو من جانبه، وهكذا، فكل الصور صحيحة، وهذا اختلاف تنوع.

والتكوينية، والقرآنية ليتبين له الحق قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقال: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠ – ٢١].

وأمره ربُّه أن يستعمل نظره وفكره وعقله بإنصاف ليصل إلى الحق، سواء بالتفكر في نفسه بمفرده أو بالبحث والمناظرة والمناقشة مع غيره قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

والعقل هو مناط التكليف وهو شرطٌ في قيام الحجة ويرفعُ القلم عن فاقده كما في الحديث: «**يرفع القلم عن ثلاث، عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يبلغ، وعن المجنون حتى يفيق**»(١).

لكن العقل كأي وسيلة للمعرفة مثل البصر، والسمع، ونحوها له مجال محدود لا يتعداه فالعين مثلًا ليس من مجالها المسموعات، مجالُها المرئيات، فالعقل كذلك ليس من مجاله الغيبيات في الماضي والمستقبل ونحو ذلك مما لا يدركه العقل(٢)، فإن أَعْمَلَ الإنسان فكره في غير موضعه تخبط وتحيّر كما حصل لكثير من المفكرين والفلاسفة وانتهى بهم إلى الإلحاد.

والعين مهما كانت قويةً فإنها عند بُعدٍ معين لا ترى، فكذلك العقلُ له مجالٌ محدود، **وكذلك فالعقل قد يخطأ الظن** (كالذي أسرف على نفسه من بني إسرائيل وأمر أبناءه بإحراقه وتذريته ليُعجزَ اللهَ فلا يُجمِّعُه، فقال الله له كن فكان) فهذا قد أخطأ في ظنه،

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٠٧) موقوفًا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ونقل ابن تيمية تلقي الأمة له بالقبول في كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان».

(٢) وإن كان بقياس الغائب على المشاهَد قد يُمكن للعقل التوصل للعلم بشيء ما مثل قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨ – ٧٩].



وكالذين ظنوا أن الله يعلم العلانية ولا يعلم السر كما في الحديث: «كَانَ رَجُلاَنِ مِنْ قُرَيْشٍ وَخَتَنٌ لَهُمَا مِنْ ثَقِيفَ، أَوْ رَجُلاَنِ مِنْ ثَقِيفَ وَخَتَنٌ لَهُمَا مِنْ قُرَيْشٍ فِي بَيْتٍ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَتُرَوْنَ أَنَّ اللهَّ يَسْمَعُ حَدِيثَنَا قَالَ بَعْضُهُمْ يَسْمَعُ بَعْضَهُ وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَئِنْ كَانَ يَسْمَعُ بَعْضَهُ لَقَدْ يَسْمَعُ كُلَّهُ فَأُنْزِلَتْ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢]».

وكذلك فالعقل قد يرى الخير شرًا والشر خيرًا كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]، ومثل صلح الحديبية كان عمرُ رضي الله عنه وكثيرٌ من الصحابة يرونها مهانةً، وقد كانت فتحًا مبينًا ونصرًا عزيزًا، وفي «البخاري» قال سهل بن حنيف: «اتهموا الرأي؛ فلقد رأيتني يوم أبي جندل لو أستطيع أن أردَّ أمر رسول الله لرددته»[1].

وكذلك فالعقول متفاوتة في الذكاء والقدرة على المعرفة، وكذلك فهي تختلف كثيرًا؛ هذا يستحسن ما يستقبحُه الآخر، ويرى الخير المحض في شيء يراه الآخر شرًا خالصًا، **فلأجل ذلك كله (مجال العقل محدود، وقد يخطأ، والعقول متفاوته في القدرة على المعرفة وتختلف كثيرًا)** فلو تُرك الحكم للعقل وحده لحصل شرٌ عظيم كما في قوله: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ [المؤمنون: ٧١]، فيبقى الإنسان بين ظنٍ في الأخبار واتباع للأهواء في تصرفاته؛ **لذلك جعل الله تمام الاهتداء بالوحي فهو الهدى والنور** قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

وأمر سبحانه أن يكون المَرَدُّ إلى حكمه عند التنازع والاختلاف ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٠]، ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

---

(١) «صحيح البخاري» (٤١٨٩).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن الله سبحانه علم ما عليه بنوا آدم من كثرة الاختلاف والافتراق، وتباين العقول والأخلاق، حيث خُلقوا من طبائع ذات تنافر، وابتلوا بتشعب الأفكار والخواطر، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين ومُبيِّنين للإنسان ما يُضله ويهديه، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وأمرهم بالاعتصام به حذرًا من الافتراق في الدين، وحضَّهم عند التنازع على الرد إليه وإلى رسوله المبين»[(١)].

وأذكى الناس عقولًا وأزكاهم نفوسًا وأحسنهم قصدًا هم رسلُ الله عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

ومع هذا فليس اهتداءهم بمجرد ذلك بل بفضل من الله وبوحي من الله قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، وقال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]، وقال يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عنه وعن آباءه: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [يوسف: ٣٨]، وقال الله للنبي محمد ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، قال سبحانه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وكان ﷺ يرتجز ويقول: «**اللهم لولا أنت ما اهتدينا**»[(٢)]، بل أمر الله نبيه ﷺ أن يبين ذلك للناس: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ: ٥٠]، وإنما فُضّل الأنبياء بالوحي ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

---

(١) «تنبيه الرجل العاقل» (١/ ٣) ابن تيمية ط. عالم الفوائد.

(٢) البخاري ومسلم.

❁ **والعقل له دور عظيم مع الوحي**:

فبالعقل والتفكر والتأمل والنظر والاعتبار يتحقق الإنسانُ من صدق النبوة وصحة الوحي كما في مثل قوله: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، فأمرهم بالنظر والتدبر والتفكر والبحث والمناظرة؛ ليتحققوا من صحة وصدق الوحي وأنه من عند الله تعالى، وقال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، ولهذا أقام النبي ﷺ الحجة على قومه أول يوم بمثل ذلك قال: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ**»، قالوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاَّ صِدْقًا، قَالَ: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»[(١)].

وقد أيّد اللهُ سبحانه رسله ببراهين لصدقهم قال النبي ﷺ: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ**»[(٢)]، وتأمل هذا المعنى في قصة موسى عليه السلام مع السحرة، فقد وعظهم أولًا: ﴿لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [طه: ٦١]، فلم يؤمنوا وجاؤوا معتزين بعزة فرعون طالبين الأجر منه، فلما رأوا الآية خرّوا لله سجدًا: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢١]، وتوعّدهم فرعونُ بالعذاب الشديد: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢].

وبالنظر في أحوال النبي ﷺ وخلقه توصلت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها إلى أن من كان بمثل تلك الأخلاق لا يُمكن أن يُخْزِيَه الله أبدًا، فلما قال لها النبي ﷺ: «**خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**»، قَالَتْ خَدِيجَةُ: «كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ الله أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ»[(٣)]، ولم تكن قد سمعت شيئًا من الوحي، وإنما علمت ذلك بعقلها وفطرتها رضي الله عنها.

---

(١) البخاري، ومسلم.

(٢) البخاري، ومسلم.

(٣) البخاري ومسلم.

وبعدما طرح هرقلُ أسئلةً على أبي سفيان عن حال النبي ﷺ وأخلاقه وهديه ودعوته توصل إلى صدق نبوته[1].

وبالبحث والنظر كذلك يتوصلُ المجتهدُ إلى صحة نسبة الحديث إلى النبي ﷺ أو عدم صحته.

فإذا تحقق صدق وثبوت النقل (الوحي) **جاء دور عظيم آخر للعقل مع الوحي وهو التدبر والاعتبار والتفقه والاستنباط منه** قال النبي ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[2]، وقال ﷺ: «**إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»[3]، وجاء الحث على التدبر والتفكر والنظر والاعتبار كثيرًا.

والوحي إما أن يأتي بشيء مما هو من مجال العقل فهو لا يمكن أن يتعارض معه ما دام النقل صحيحًا والعقل سليمًا، بل الوحي كلما بحثت فيه وتفكرت وتأملت ازددت يقينًا في كونه صدقًا ووحيًا من عند الله لذلك أمر سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ ﴾ [سبأ: ٤٦]، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦]، وقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ ﴾ [النور: ٣٥].

وتأمل هذا بمثال قول النبي ﷺ: «**إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ**»، وقوله ﷺ: «**وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ**»، وأمره ﷺ بالعفة والأمانة وصلة الأرحام، ونهيه عن الغش والخيانة ونحو ذلك، فهو مطابق للعقل السليم والفطرة الصحيحة فيكون العلم قد جاء من جهتين، ومن ذلك لما سمع جبير بن مطعم قوله ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥]،

---

(١) البخاري ومسلم.

(٢) البخاري ومسلم.

(٣) البخاري ومسلم.

قال: «كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ»[(١)]، ودخل الإسلام، ولما تعجب بعض الكفار من إحياء الله العظام وهي رميم قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]، وكذلك في جدال إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٤٢]، فهذه أدلة عقلية على بطلان عبادة الأصنام، ومن أمثلة ذلك ما أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»: أن شابًا قال للنبي ﷺ: إيذن لي بالزنا، فقال له النبي ﷺ: «**أترضاهُ لأمك؟.. أترضاهُ لأختك؟.. أترضاهُ لابنتك؟..**» الحديث. فهذه أدلة عقلية مع أدلة الوحي على قُبح الزنا.

وقد يكون بالتجربة كما يبحث العالم في معنى حديث: «**إِذَا سَقَطَ الذُّبَابُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ كُلَّهُ، ثُمَّ لِيَنْزِعْهُ فَإِنَّ فِي أَحَدِ جَنَاحَيْهِ دَاءً وَفِي الْآخَرِ شِفَاءً**»[(٢)]، فهو وإن كان بمجرد صحة الخبر عن رسول الله ﷺ يُصدق ويؤمن، لكنه إن علمه بالتجربة لاشك يزدادُ إيمانًا وفي هذا المعنى قوله: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٤]، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، هل إيمانك بذلك موقوف على رؤيتك؟ ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وقريب منه قول الحواريين: ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة: ١١٣]، وهكذا دين الإسلام كالذهب الخالص كلما امتحنته ازددت فيه يقينًا، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٦]، وقوله تعالى: ﴿ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ [الفجر: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: ٧٥].

---

(١) البخاري.

(٢) البخاري.

أما إذا جاء الوحي بشيء مما لا يدركه العقل مما ليس من مجاله وحدوده كالإخبار عن الغيب ونحوه مثل نعيم الجنة: «**قَالَ الله تَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ، مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»(١)، وفي القصص والأخبار: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

فمثل هذا يجب قبوله؛ لأن الإنسان بعقله ونظره علم صدق النبي ﷺ فلذلك يؤمن بخبره عن الغيب، وتأمل حديث النبي ﷺ لما ذكر لأصحابه بقرةً تتكلم(٢)، قالوا: سبحان الله، قال: «**فأنا أُومن بذلك**» مع أن النبي ﷺ لم يرى ذلك، وقال: «**وأبو بكر وعمر**»، ولم يكونا في ذلك المجلس، وكان شعارهما (إن كان قالها فقد صدق)، **لاحظ: فقبول الخبر معلق على مجرد ثبوته عن النبي ﷺ، فإذا أخبر** ﷺ مثلًا عن الله سبحانه: «**أنه ينزل إلى سماء الدنيا في ثلث الليل الآخر...**»(٣)، و«**أنه سبحانه في السماء**»(٤)، و«**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**»(٥)، ونحو ذلك من الغيب وجب القبول ما دامم النص ثابتًا، والعقل قبل ورود الخبر لا

---

(١) البخاري، ومسلم.

(٢) والحديث في البخاري، ومسلم قال رسول الله ﷺ: «**بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ**» فَقَالَ: النَّاسُ سُبْحَانَ الله بَقَرَةٌ تَكَلَّمُ فَقَالَ: «**فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا، وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ - وَمَا هُمَا ثَمَّ - وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذِّئْبُ فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ فَطَلَبَ حَتَّى كَأَنَّهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ: هَذَا اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ يَوْمَ لاَ رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي**» فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ الله ذِئْبٌ يَتَكَلَّمُ، قَالَ: «**فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا، وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَمَا هُمَا ثَمَّ**».

(٣)«صحيح البخاري».

(٤)«صحيح مسلم».

(٥)«صحيح مسلم».

يمنع، ولكنه متوقف، فإذا جاء دليل صحيح وجب على العقل القبول: «**فانتفاء الدليل المعين لا يستلزم انتفاء المدلول**».

ولن يتم إيمان العبد برسول من رسل الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إلا أن يؤمن بخبره عن الغيب، لذلك لم يُقبل إيمان من عاينوا العذاب قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤-٨٥]، ولم يقبل اللهُ إيمانَ آزر (أبي إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ) عند قوله لإبراهيم يوم القيامة: «**فاليوم لا أعصيك**»[1]، وكذلك فرعون: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠-٩١]، **فالإيمان هو: أن تأتمن المخبرَ على خبره**، وإلا فلو توقَّفَ إيمانك بخبره على رؤيةِ ذلك الخبر بنفسك فلا يسمّى ذلك إيمانًا ولا يكون النبيُّ حينئذ طريقَك لتلك المعرفة، ولهذا أخذت اليهودَ الصاعقةُ لما قالوا لموسى: ﴿**لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً**﴾ [البقرة: ٥٥]، ولاحظ الفرق بين قولهم، وبين قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فإذًا: لكونك قد علمت بالنظر والتأمل والاعتبار ورؤية الآيات صدق النبي ﷺ فليكن منهجك (**إن كان قالها فقد صدق**).

❁ **هكذا أيها الأخوة فمصادر المعرفة تتكامل ولا تتعارض إذا استعملت كلًا منها في مجال وحدوده:**

والعقل مهما كان ذكيًّا لن يهتدي به الإنسان بدون الوحي كما قال النبي ﷺ بأمر ربه: ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠]، وكذلك الوحي إن لم يكن المستمع عاقلًا مريدًا للهداية قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال عن القرآن: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي

---

(١) البخاري، ومسلم.

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ﴾ [يوسف: ١١١]، لكن لمن؟ ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ ﴾ [يوسف: ٧]، لمن؟ ﴿لِّلسَّائِلِينَ ﴾ [يوسف: ٧]، ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، لكن مع كونها مضروبةً للناس جميعًا قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

والعينُ مهما كانت درجةُ إبصارها عاليةً فلن يرى صاحبُها في الغرفةِ المظلمةِ، وكذلك لو كانت الشمسُ ساطعةً والرجل أعمى فلن يرى، ومن هنا تعلم أن العقل والوحي يتكاملان ولا يتعارضان وتفهم لماذا قال مخالفوا الرسل: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

ولئن كان من يفرضُ التعارضَ بين مصادر المعرفة (الفطرة، والعقل، والإدراك الحسي، والوحي) مخطئًا، فلا يقلُّ عنه خطأً من يُقدمُ أحدَها على الآخر، أو من يحصر المعرفة في واحد منها.

فالوحي هو النور وبه الهداية وبراهينها والفرقان بين الحق والباطل ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، ولأجل ذلك أمر الله تعالى نبيه الكريم ﷺ أن تكون استقامته بالوحي ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود: ١١٢]، ودعوته كذلك ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [الشورى: ١٥]، وإنذاره ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ۚ ﴾ [الأنعام: ١٩]، وتذكيره ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ ﴾ [ق: ٤٥]، وحكمه بين الناس ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤٩]، وحذّر نبيه ﷺ من مخالفة الوحي أو كتمانه ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٤٥]، وقال تعالى: ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ



رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، وهذا حكم معلق بشرط، «**وتعلُّق الحكم على شرط لا يستلزم وقوعه**»، بل غايته بيان للحكم على تقدير وقوع الشرط كما في قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، وقوله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وهذا كثير جدًّا المراد منه بيان الحكم على هذا التقدير[1]؛ لكنه كذلك يكون لِحِكم وفوائد يدل عليها السياق فمثلًا قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، حكمٌ لم ولن يقع لكن الفائدة منه بيان أن النبي ﷺ ممتثلٌ لأمر الله فلو كان لله ولد يُعبد لكان أول من يعبده، وفي قول النبي ﷺ: «**لو سرقت فاطمة لقطعت يدها...**» فيه تعظيم حدود الله، وهكذا في كل حكم عُلق على شرط لم يقع.



(١) في قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ [الزمر: ٤]، ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [يونس: ٩٤].، وقد تكلف جماعة من المفسرين توجيه مثل هذه الآيات ظنًّا منهم أن تعلق الحكم بشرط يستلزم وقوع الشرط، وهذا غلط؛ بل تعلق الحكم على شرط لا يستلزم وقوعه.

❁ خاتمة مهمة[(١)]:

إن المعرفة في الإسلام تختص بالتوافق والتكامل بين مصادرها، والمقصود بالتوافق عدم التعارض بين المصادر التي قد تشترك في الدلالة على بعض المجالات، والمقصود بالتكامل إثبات أن لكل مصدر حدوده ومجالاته التي تختص بها، بحيث تكون دلالات المصادر المختلفة متكاملة لا متعارضة.

وأساس عدم إمكان التعارض بين مصادر المعرفة: أنه إذا كانت المعرفة بأمر ما مما يختص به أحد المصادر لم يُتصور أن يُعارضه مصدر آخر؛ لأن تلك المعرفة ليست من مجالاته المعرفية حتى يمكن أن يكون له فيها دلالة تخالف دلالة المصدر الآخر، ومصدر المعرفة إنما يكون معتبرًا في حدود مجالاته لا فيما يكون خارجًا عنها، وبذا يتحقق التكامل بين مصادر المعرفة.

وأما إذا لم تكن المعرفة بأمر ما مختصةً بمصدر معين، بل أمكن أن تحصل به وبغيره فإنه لا يمكن أن تتعارض دلالة تلك المصادر، بل لابد أن تكون متوافقةً؛ لأن اعتبار المصدر في المعرفة إنما يقوم على أساس أن ما دل عليه لابد أن يكون حقًّا؛ لأنه لو لم يقتض الدلالة على الحق، أو أمكن أن يدل على الباطل لم يكن مصدرًا للمعرفة، والحق الذي هو مقتضى دلالة مصادر المعرفة إنما يكون واحدًا، فلا يمكن أن يدل مصدر على ما يدل المصدر الآخر على خلافه؛ لأن ذلك يستلزم بطلان دلالة أحد المصدرين، وهذا يناقض كونه مصدرًا للمعرفة، وإن سلم بمقتضى دلالة المصدرين مع تناقضهما لزم التناقض؛ لأن الحق لابد أن يكون هو مقتضى دلالة أحدهما دون الآخر.

ومثال ما سبق أن العقل قد يدل على ما يدل عليه الوحي، وقد يختص الوحي بالدلالة على ما لا يمكن الاستدلال عليه بالعقل، فما اختص الوحي بالدلالة عليه وجب التسليم به على ظاهره، وعدم تقييد قبوله بالإمكان العقلي؛ لأن الوحي معصوم من الخطأ، فما دل عليه فلابد أن يكون حقًّا، وما كان حقًّا لم يمكن أن يدل العقل على استحالته وعدم إمكانه، بل إما أن

---

(١) «المعرفة في الإسلام» (ص ٢٣ – ٢٦) الدكتور عبد الله بن محمد القرني (بتصرف يسير).



يكون حقًّا فلا يكون مستحيلًا ولا يُتصور عدم إمكانه، وإما أن يكون مستحيلًا فلا يكون حقًّا، وبذا لا يمكن ورود التعارض بين العقل والوحي فيما يختص الوحي بالدلالة عليه.

وأما ما أمكن الاستدلالُ عليه بالعقل مع ورود الوحي به فلا يمكن أن يدل العقلُ على ما يناقض ما دل عليه الوحي، بل لابد من الموافقة بينهما؛ لأن الوحي معصوم من الخطأ فلابد أن تكون دلالته حقًّا، ودلالة العقل لا يمكن أن تعارض دلالة الوحي؛ لأن الدلائل القطعية لا تتعارض، وإنما يتعارض ما هو قطعي مع ما هو ظني، بل يلزم من التسليم بإمكان أن يدل العقل على خلاف ما دل عليه الوحي أن يكون الوحي مشتملًا على ما هو باطل في نفسه، بحيث لا يُعلم بطلانُه إلَّا من جهة دلالة العقل على بطلانه، وهذا يلزم كل من قال بإمكان التعارض بين العقل والوحي.

والمقصود هنا بيان ضرورة الموافقة والتكامل بين دلالة الوحي ودلالة العقل، وأما تفصيل العلاقة بينهما فله مجال آخر.

ومن أمثلة التكامل وعدم التعارض بين مصادر المعرفة في الإسلام أنه يجب التسليم بمقتضى الدلالة العقلية ومقتضى دلالة الإدراك الحسي، دون أن يكون بينهما تعارض؛ لأن الدلالة العقلية الضرورية هي مقتضى الغريزة العقلية فلابد أن تكون حقًّا؛ لأنها مقتضى الفطرة، وكذلك فإن دلالة الإدراك الحسي على الجزئيات في الواقع لابد أن تكون صحيحة؛ لأن ذلك هو مقتضى الفطرة أيضًا، فكما أن الإنسان مفطور على تصور الضروريات فهو أيضًا مفطور على إدراك الواقع الخارجي في حالته الطبيعية التي خلقه الله عليها.

كما يستند إثبات هاتين الدلالتين مع الجزم بعدم تعارضهما إلى أن لكل منهما وجه من الدلالة يختص به لا يعارض الوجه الآخر، فالحواس إنما تدرك الوقائع الجزئية في الخارج، ولا يمكن أن تدل على الأحكام الكلية الضرورية، كما أنه لا يمكن إدراك الوقائع الجزئية في الخارج بمجرد الغريزة العقلية وما تقتضيه من الأحكام الكلية الضرورية، وبذا يكون الشك في أحدهما مقتضيًّا للشك في الآخر.

وبذا يُعلم خطأُ الحسّيّين في نفيهم لما يختص به العقل من التجريد والأحكام الكلية، وخطأُ الذين يشكون في الحواس من العقليين، وأنه لابد في المعرفة من تحقق التكامل بين ما يختص به العقل وما تختص به الحواس، دون أن يقتضي ذلك التعارض بينهما.

وأما ما يتعلق بحدود المعرفة ومجالاتها فإن اختصاص الإسلام بالوحي المعصوم يقتضي أن يكون للمعرفة في الإسلام مجالات تختص بها، إذ لا يمكن الاستناد فيها إلى الكتب السابقة لوقوع التحريف فيها، كما أنها تُجاوز حدود المعرفة البشرية، وذلك أن أصحاب المذهب الحسي في المعرفة يدّعون أن المعرفة اليقينية لا تُجاوز المحسوس، كما أن أصحاب المذهب العقلي وإن سلَّموا بإمكان الاستدلال العقلي على الغيبيات لا يمكن أن يستدلوا على جميع الحقائق الغيبية؛ لأن من المعارف الغيبية ما لا يمكن إدراكه إلَّا من جهة دلالة الوحي عليه.

ومما يختص الوحي بالدلالة عليه ما يتعلق بالتشريع، إذ لا يمكن للبشر أن يشرعوا لأنفسهم ما فيه صلاحهم، لغلبة الجهل والهوى عليهم، وإنما يتوقف ذلك على التشريع بالوحي: فاليقين في الغيبيات، والهداية في التشريعات مما يختص به المعرفة في الإسلام عن جميع الأديان والمذاهب الفلسفية[1].

وذلك لأن الإسلام شرعةٌ ومنهاجُ من خلق الخَلْق، وهو أعلم بهم ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ [طـه: ٤]، ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٤]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وهو القائل سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وكتابه محفوظٌ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾

(١) انتهى كلام الدكتور عبد الله بن محمد القرني.



[الإسراء: ٩]، ولا تتم الهداية به إلا ببيان النبي ﷺ له: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤].

وبعد: فقد تقرر في هذا الإيجاز وجه اختصاص المعرفة في الإسلام بالدلالة على الحق في جميع جوانب المعرفة.

والحمد لله رب العالمين.

❁ اللهم اهدنا لما اختُلف علينا من الحق.

❁ اللهم ألّف بين قلوبنا.

❁ ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

❁ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾.

❁ ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾.

كتبه

حسين بن عبد الرّازق

لأي ملاحظات أو اقتراحات

Hussin-mekky@yahoo.com

